جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

الاسلام ومستقبل الانسانية

الدكتور : عبدالحميد احمد ابو سليمان

الرياض

1407 هـ - 1987 م

الاسلام ومستقبل الانسانية

الدكتور: عبدالحميد أحمد أبو سليمان*

المقدمـــــــة

لا بد للباحث في هذا الموضوع من مقدمة تسهل مهمة القارىء في فهم الاطار الذي يدور فيه هذا البحث.

ان الباحث الواعي في أحوال الأمة الاسلامية وما بلغته من العجز والضعف والتدهور بميزان العصر ومواقع أمم العصر ـ خاصة ان لم يؤمن وعي القارىء على جوانب الموضوع ـ لا بد له من الاعتذار والتوضيح قبل ان يبدأ العرض.

لأن المسلمين على ماهم عليه انما يدعون الانتماء الى الاسلام.

اذا كان هذا حال من ينتمون اليه فكيف الأخذ بمأخذ الجد في ساحة التقدم الأفضل للانسانية نحو المستقبل.

وهذا حق لو وقف الأمر عند هذا الحد.

ولكن القضية بالفعل ابعد آفاقا مما يدل عليه ظاهرها.

ولابد للمفكر والباحث ان لا يقف عن حد الظواهر

والأسباب التي تستوقف الباحث الجاد في الأمر عديدة منها:

١ ـ ان الاسلام دين وينسب اليه ما لا يقل عن خمس البشرية

٢ ـ ان الاسلام ظل يسيطر على خيال وثقافة وفكر الأمة الاسلامية عددا كبيرا من القرون.

٣ ـ ان المسلمين رغم كل الظروف والاحوال والهجوم المر الذي يتعرضون له ولانتسابهم لهذا الدين وهذا المفهوم للحياة، فانهم يتمسكون بالانتماء اليه رغم مافي واقعهم من انحراف عن مثله.

٤ ـ ان المسلمين قد حاولوا كل السبل في تقليد غيرهم واستيراد اساليبه

* كلية العلوم الادارية. جامعة الملك سعود. بالرياض ـ المملكة العربية السعودية.

ومناهجه لاصلاح شأنهم وفشلوا لعدة قرون وتحت ظل مختلف الظروف والمؤتمرات من اقصى الشرق الى اقصى الغرب دون جدوى.

٥ ـ ان المتأمل في احوال الانسانية والحضارة المادية المعاصرة رغم كل ما حققته من انجازات علمية وتقنية مادية لا يخفى عليه وجوه العجز ومواطن الخطر في مسار هذه الحضارة بل وبسبب ما انجزته هذه الحضارة من قدرات مادية وهائلة مدمرة دون ان تحقق له النمو والاستقرار النفسي والعاطفي والروحي المتكافىء وهذه القدرات. اذاً لابد ان توفر له المنطلقات الفلسفية اللازمة للسيطرة على هذه القوى الهائلة والاّ كانت وبالاً عليه وعلى أسس وجوده.

من هنا لا يمكن للباحث ان يتجاهل كل هذه القضايا والظواهر، فلا يبحث في اسس بلاء هذا الجزء الهام من البشرية الذي هو الشعوب المسلمة، كما لا يمكنه ان يمر بهذه الشعوب الكبرى من البشرية دون ان يتفحص مفاهيمها ومنطلقاتها في مواجهة ازمة البشرية القائمة في ابعاد حالكة نحو المستقبل اذا قسنا مستقبل البشرية بماضيها المعاصر في حروب عالمية بربرية مدمرة تفتقد دواعي حكمة المنطق الانساني السليم.

ان من المهم في هذ المقدمة تحديد عدة قضايا:

أولا: ان تدهور المسلمين قديم تمتد جذوره الى قرون طويلة حتى قبل ان تسقط بغداد وقرطبة وسمرقند.

ثانيا: رغم كل الكوارث فان المسلمين مصرون على الانتماء عن التحول.

ثالثا: ان كل محاولات الحلول المستمرة من المنطلقات الحضارية الأجنبية ولعدة قرون قد فشلت في تغيير حال الأمة وتحريك طاقاتها وحل مشاكلها.

رابعا: ان منطلقات الحضارة الغربية المادية على مختلف اشكالها تضع الانسانية في مآزق خطيرة ومستقبل مظلم لا يغير من تلك الحقيقة كل المنجزات الايجابية لهذه الحضارة بل ان تلك المنجزات تجعل وجوه القصور مطاعن للوجود الانساني ككل.

أزمة فكر لا أزمة عقيـدة:

ولكن تعي الانسانية موضع الاسلام الذي غطى قدرا كبيرا من تاريخها وكيان شعوبها ووجه الإنسانية وبين لها طريق مستقبلها.

ولكي يعي المسلمون حقيقة الأزمة المزمنة التي يعانون منها لابد لهم من تفحص القواعد الأساسية التي يرتكز اليها كيانهم لتحديد سبب الأزمة والغوص الى اعماق تلك الأزمة ومعالجتها معالجة جذرية، فلم يعد في واقع حالهم من الخارطة الانسانية الحضارية ما يحرصون عليه ويخشون ضياعه في بحثهم عن أسباب الأزمة الساحقة المزمنة التي يعانون منها.

وفاعليات الانسان ترتكز الى عاملين اساسيين هما:

١ امكاناته وفاعليته المادية.

٢ - وامكاناته وفاعلياته المعنوية.

ولذلك فالسؤال المنطقي الأساسي هل سر الأزمة التي يعاني منها المسلمون تكمن في قصور امكاناتهم وفاعلياتهم المادية

والجواب بالتأكيد بالنفي

فالمسلمون يتحكمون في رقعة واسعة من الأرض تضم في جنباتها مختلف الامكانات المادية التي لا تقصر عن حاجتهم الحضارية، كما ان كيانهم يضم اعدادا بشرية هائلة تنتمي الى كل اجناس الأرض وشعوبها ولها من الثقة النفسية قدر كبير فيما سبق لها ان حققته من انجازات ومواقع تاريخية حضارية

ومع ذلك فان سمة العجز والقصور تلاحق كيانهم على اختلاف مكوناتها ومواقعها المادية.

واذا لم يكن القصور يكمن في امكاناتهم وفاعلياتهم المادية فليس من بد في ان القصور يكمن في امكاناتهم وفاعلياتهم المعنوية.

ولكن السؤال يكون حينئذ في أي من مكونات الفاعليات المعنوية يكمن الضعف؟

وقد تبرع الدارسون ـ من أصحاب الغايات والاغراض من الأمم المناجزة للمسلمين حضاريا والطامعين في مقدراتهم، الساعين الى السيطرة عليهم ـ بالاجابة على هذا السؤال بالقول: ان العلة تكمن في الاسلام دين الأمة ومنهجها.

وكانت تلك الاجابة هي منطلق محاولات طويلة مرة لأكثر من قرنين للخلاص من سيطرة الاسلام على الأمة ونظامها الاجتماعي وما تزال الأمة في ضعف وهوان وعجز تزداد هوته وتتعاظم آلامه.

ولكن الحيرة والتخبط يزدادان ولا ينقصان.

ولا يبدو امام الأمة الآن مخرج ولا منفذ.

والسبب في تصورنا ان قضايا البحث اختلطت بقصد ودون قصد.

فالقضية لا تكمن في منهج الأمة واسلامها أو لا تكمن، ولكن القضية في وضعها الصحيح هي في أي مكونات هذا المنهج يكمن الضعف وسبب الأزمة.

هل تكمن الأزمة في عقائد الأمة الأساسية وقيمها المثالية وغاياتها الاجتماعية؟

لا يستطيع عاقل ان يقول ان الأزمة لها اي علاقة بهذا الجانب من مكونات الأمة المعنوية.

ولا يخفى على عاقل سمو تلك القيم والعقائد والمبادىء والغايات الاجتماعية، وليس يخفى على الناظر ان من مظاهر الأزمة هذا القصور البيّن بين هذه القيم والتطلعات وبين واقع السلوك والممارسة الاسلامية للأمة.

من هنا يشك في غايات الاخاء والعدل والكرامة والقصد والتطهر في عقائد المسلمين وقيمهم.

هل يشك احد في وجوب الصدق والأمانة والرحمة والبذل والتكافل والعدل وحسن الأداء والاتقان في قيم الاسلام.

وهل يشك احد في تفريط المسلمين في هذه القيم وغيبتها وغيابها في سلوكهم وعلاقاتهم.

نعم من المهم ان نعلم ان عقائد الاسلام التي تقوم على التوحيد

والاخاء وقيم الحق والعدل والبذل هي من ضمن اهم مقومات الأمة وفاعليتها الايجابية في مواجهة اسباب الأزمة التي تغوص بها في دوامة الضعف والعجز والانهزام.

ولولا قوة دفع هذا الدين رغم كل التشويه والضباب والقصور في فهمه لكان حال الأمة من الهمجية والبربرية اشد هولا ولكان مصيرها الموت والفناء منذ آماد طويلة.

اذن ماهو سبب الأزمة؟

ان حقيقة الأزمة التي تعاني منها الأمة هي في اساليب دربتها الفكرية وعلاقاتها التنظيمية الاجتماعية. اي ان الأزمة ليست في جوهرها أزمة عقائد وغايات ومثل بل هي ازمة فكر واسلوب وتمثل وتنظيم.

ماهية الأزمة الفكرية وكيف نشأت:

من الواضح والمسلم به ان فترة صدر الاسلام تمثل قاعدة البناء الاسلامي التي أرست اسس تكوين الأمة وبنائها ومن المعروف و المسلم به ايضا ما تميزت به تلك الفترة من علاقات اجتماعية وقدرات وانجازات هائلة تركت آثارها التي لا تنمحي في قسمات وكيان الأمة

ولا تخطىء عين الدارس انه بزوال دولة المدينة وانقضاء عصر الصدر الأول حدث تغير وتحول في كيان الأمة ومسيرتها وعلاقاتها، ولكن الباحثين لا يقفون طويلا، عند هذا التحول الحاسم في محاولة فهم التدهور اللاحق.

وكثيرا ما ينصرفون الى محاولة تفهم الاسباب في الاحداث المباشرة لصعوبة الربط بين تلك الأحداث والتدنيات والتحولات التي حدثت في خلال عصور من التاريخ الاسلامي يتميز كيان الأمة فيه بكل مقومات المهابة والقدرة والانجاز الحضاري في الدولة الأموية والعصر العباسي الأول، أو بسبب الارهاب السياسي في عصور الضعف والانحطاط الذي يقاوم النظر السليم والمنطق المستقيم، أو بسبب الخشية من مزيد من العناء ينكأ جراح الأمة وذكريات محنها وحروبها وصراعاتها الكبرى. أو بسبب الرهبة والاجلال لتلك العصور والشخصيات التاريخية التي لم يبق للأمة سوى ذكراها.

وبذلك يبقى البحث عاجزا يرد الظواهر الى ظواهر والنتائج الى نتائج دون قدرة على معرفة حقيقة الأسباب، ولكن تبقى الحقيقة في ان الأزمات الكبرى في حياة الأمم والشعوب لا تفسرها الاحداث المباشرة ولا بد من الغوص في أعماق كيان الأمة وتاريخها وتتبع مجرياته لمعرفة البدايات البعيدة والاسباب الأولية والأساسية وتحديد مساراتها لمواجهتها وتصحيحها.

وتبقى الحقيقة ان تحولا اساسيا وفي ميدان فاعليات الأمة وامكاناتها المعنوية قد حل بها بزوال عهد الصدر الأول والخلافة الراشدة وعلاقاتها الاجتماعية رغم امتداد الدفع المادي وطرح ثماره خلال العهود الأولى اللاحقة لعهد الصدر الأول.

في تصورنا ان ذلك التحول بدأ بانضمام افراد القبائل العربية من غير المهاجرين (من قريش) والانصار (من الأوس والخزرج) الى صفوف الجيش الاسلامي في مسيرته نحو الشمال لمواجهة الخطر الداهم من قبل الامبراطوريتين العظيمتين في ذلك الوقت الرومانية والفارسية

وجنود الاعراب لم يكن لهم من الرؤية العقائدية والتربية الاسلامية ما كان لجيش بناء دولة المدينة بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام يشهد عليهم القرآن الكريم بقوله: **﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر الأ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾**[1] **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم. .﴾**[2] وتشهد عليهم قسوة البيئة التي لم تكن تسمح لهم بما وراء حياة البادية كثيرا ولقرب عهد التحول الى مجتمع الانسان المسلم.

ولذلك وقد اصبحوا قوام جيش الأمة ولتعاظم ضعف رجال القيادة في المدينة بالسن وفي العدد، كان لا بد ان يملى جيش القبائل وجوده السياسي وقيمه وتصوراته وعلاقاته الاجتماعية التي لم تكن في جملتها جاهلية بحته ولا اسلاما ناصعا نقيا ولكن كان مزيجا من الأمرين، وما تجلب به

---

١ ـ سورة التوبة. الآية: ٩٧

٢ـ سورة الحجرات. الآية: ١٣

ممارساتها بعد ذلك من المحافظة على الهياكل والرسوم هو في جملته على حساب المحتوى وحقيقة الغايات والأهداف وطبيعة العلاقات الاجتماعية الاسلامية.

وفي ظل هذه المعطيات كان لا بد من الصراع ولا بد من زوال دولة المدينة وكان لا بد من قيام دولة جديدة كانت هي دولة بني أمية التي لم يقف التغير فيها فقط عند تحول الخلافة الى ملك عضوض كما يعترف الكتاب الاسلاميون ويقفون في دراستهم عند هذا الحد، فالتغير السياسي لا يمكنه أن يقف عند ذلك الحد، فلا مكان لمثل هذا التغيير السياسي ولا موضع له دون ان تكون آثاره الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية

وكان ابعد آثار ذلك التحول هو حال الانفصام والمواجهة بين فكر المدينة ومنطلقاتها وبين السلطات السياسية في الدولة الجديدة، وكمثال على ذلك، تحديدا للمسئولية وحفظا للحقوق ومنعا للتبرير وسوء الاستخدام ـ كان لابد أن يقف ابو ذر ليرد على معاوية رضي الله عنهما وهو على المنبر قوله: **بأن المال مال الله** وهو يبني عصبية ويتألف اعوانا يتحكم بهم في الرقاب في قوم يريدون ان يصطنعوا وأن يميزوا وأن يستخدموا اعوانا على رقاب الناس، وليقول له: بل **مال المسلمين**.

وبقي اقليم النشأة المدنية ثائرا رافضا هذا التحول رغم ان رجال الحكم في دمشق كانوا من قريش ـ فكانت ثورة الحسين وابن الزبير ومحمد النفس الزكية وزيد بن على وكانت حروبا اهلية طاحنة.

وبقي رجال الفكر الاسلامي وأمناء الفكر الاسلامي في مركز المناجزة والمعارضة فيموت الامام أبو حنيفة سجيناً ويضرب الامام مالك ويهرب الامام الشافعي ويعذب الامام أحمد.

وكانت تلك المواجهة والانفصال بين القيادتين الفكرية والسياسية في الأمة هي أخطر آثار ذلك التحول وأسس البلاء. حيث انعزل الفكر واضمحل وجفت مصادر نمائه وتجدده في ميدان التطبيق والممارسة والقيادة وهزلت السياسة والقيادة السياسية لجفاف منابعها من القيم والتصورات والفكر وارتكزت على الجهل والقهر

الجمود والتدني:

وكان ذلك التحول وما يتبعه من تحولات من دولة المدينة الى دولة دمشق ثم بغداد وما وراء دمشق وبغداد بكل ما اضافت تلك التحولات من ضباب الرؤية وعماوات جاهلية قبلية عربية وفارسية وهندوكية ورومية وغربية بداية الانحراف الذي أرسى وعمق عزلة القيادة الفكرية الاسلامية عن القيادة السياسية الاجتماعية للأمة، وتركت تلك العزلة والفرقة آثارها الرهيبة على الفكر الاسلامي جمودا وعلى السياسة الاسلامية قهرا وجهلا وعلى كافة الأمة خرافة وضياعا واستضعافا.

ويهمنا هنا ان نناقش قضية هذا الجمود، جمود الفكر الاسلامي وما ترتب عليه من ضباب رؤية الأمة، فنحن اذا استطعنا في تصوري توضيح هذين الجانبين امكن لنا ان نشخص الداء وان ندرك طبيعة الدواء ـ ان شاء الله.

ان عزلة الفكر والمفكرين المسلمين عن الدولة نتيجة ما حدث من تحول ادى بهم الى الانزواء والتحفز والمعارضة، وقد انصرفوا في البداية الى توثيق التصور والتطبيقات الاسلامية فنشأ علم الحديث وعلم الفقه (بروحه الوصفية) ونشأ علم العقائد بعيدا عن النظر في النظام الاجتماعي وتنظير تطبيقاته وبقي في حدود قضايا غيبية كمباحث الأسماء والصفات والقضاء والقدر

ومع تطور الأحوال الاجتماعية فان عزلة المفكرين الاسلاميين جعلتهم اقل قدرة على ادراكها ومواكبتها والمبادرة الى قيادة اتجاهاتها وجعلتهم في نفس الوقت اشد خوفا على التراث الذي في ايديهم من غايات القيادات السياسية وأساليبها المغايرة مما انتهى بالفكر الاسلامي الى الغرق في بحر الاسلوب الوصفي بالقناعات الذاتية الناجمة عن النظر الجزئي في القضايا التاريخية والعجز عن ادراك التطورات المحيطة أو احتوائها وتوجيهها والاغراق في العزلة والانغلاق وتأكيد الذات.

وهكذا انتهى الفكر الاسلامي الى الجمود والركود والوقوف بعيدا عن مجرى الأحداث وعرف ذلك في تاريخ التشريع الاسلامي باغلاق باب الاجتهاد.

ولهذا لم تأت الومضات الاجتهادية التطبيقية الا من رجال أضافوا الى حصيلة علمهم الممارسة الاجتماعية والنظرة الكلية والنزول الى دائرة العمل السياسي أمثال امام المدرسة الاصلاحية السلفية الامام ابن تيمية.

وما احرانا في هذا المجال ان نعي معنى اجتهادات أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الهائلة رغم قرب عهده بالرسول عليه الصلاة والسلام.

وعلى سبيل المثال اجتهاده في نظام الخراج واجتهاده في وقوع الطلقة الواحدة بلفظ الثلاث طلاقا بائنا رغم معارضة ذلك لصريح النص القرآني في الأمر، ﴿**الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان**﴾[1] أخذ منه بحق ولي الأمر المشروع في تقويم أمر الرعية

من هذا ننتهي في هذا المجال الى ان المنهج الدراسي الفكري للمدرسة الاسلامية التقليدية يحتاج الى اصلاح جذري ينقله الى أسلوب النظرة الكلية وإلى اعتبارات الممارسة والنظم والتطبيق والخروج على الأسلوب الوصفي المحدود واعادة الوحدة الى الفكر الاسلامي بين النظرية والتطبيق بين علم العقائد وعلم الفقه حتى ترتكز التطبيقات والممارسات الاجتماعية في كل صورها الى العقائد والتصورات الأساسية التي تحكمها.

الخروج من دائرة الفهم والنظر الجزئي لأحداث الصدر الأول ونصوصه وممارساته الى الفهم والنظر الكلي الذي يعي عنصر الزمان والمكان في تلك التصرفات والأحداث ويربط بين اجزائها وغاياتها ومساراتها التاريخية الكلية ويوظف الاسلوب التحليلي في فهم الأمور ووعي دلالاتها. وبذلك تعود للمشاهد حياتها وللاحداث معانيها وللقرارات والأوامر دلالاتها وتزول ذاتية الأحكام ومحدوديتها وغيبيتها

وعندئذ فقط يتخلص الفكر الاسلامي من الاسباب الموضوعية لجموده ويعود الى مكان الصدارة في توجيه قرارات القيادة السياسية

---

١ سورة البقرة. الآية ٢٢٩

والاجتماعية وامدادها بالحلول والبدائل والخطط الرائدة لحس سير الحياة الاجتماعية وفاعليتها.

الحلقة المفرغة:

وستبقى الأزمة قائمة والداء مستفحلا والاستقرار مفقودا والعجز متفاقما تتردى به الأمة س هاوية الى قعر هاوية على بحر هائج من التضحيات والآلام مالم يكسر الطوق ويوضع حد للدوران في حلقات مفرغة من الحلول الفاشلة البائسة من التقليد الأجنبي أو التاريخي.

ان الحل يكمن بتهيئة الظروف لقرار سياسي بكل تبعاته من قبل الأمة وأخذ نفسها به ثمنا لآلامها ومعاناتها وآمالها.

هذا القرار هو اعادة صياغة **التعليم** و **الاعلام** لبناء ثقافة موحدة تكون قيادات اسلامية تؤمن بهذه الثقافة وتتفاعل معها. فكرا وممارسة بشكل ايجابي وفعال وتوفر قاعدة اجتماعية تراقب وتدعم هذا اللون من القيادات.

تعليم يقدم المهارة الفنية والبحث الفني على اعلى المستويات على اسس ولغايات اسلامية.

وإعلام يقدم الترويح والثقافة والتصورات للمشاهدين والقراء والناشئة أساليب ونماذج تمثل القيم والغايات الاسلامية ولا تتعارض معها.

ان المهمة في هذه المرحلة التاريخية تقع على عاتق المفكرين والقيادات الاسلامية في توضيح طبيعة القرار السياسي المطلوب من الأمة حتى اذا ما اتضحت الغاية واتضح الطريق والحل، أخذت الأمة بكل الأسباب لتحقيق تلك الغاية ومارست الحل بكل الطرق والأساليب وعلى كل المستويات.

وأقامت الوحدة الفكرية بكل الأساليب والوسائل في التعليم الرسمي والتعليم الخاص وفي سياسة النشر وفي سبل نشر الثقافة والترويج لها وفي سياسة العمل والتوظيف وفي كل المواقع وبكل الأساليب في جهاد لا يني وعزم لا ينثني.

عندئذ يتحقق المسار الصحيح لمسيرة الأمة وتحل الأزمة الفكرية في أسسها ومنابعها.

تصحيح المفاهيم الاسلامية:

وخلال هذه المسيرة في سبيل اتخاذ القرار السياسي من قبل الأمة في اصلاح مسار **التعليم** و **الاعلام** وتنشئة القيادة الاسلامية الفكرية والسياسية والاجتماعية الموحدة التي ترتكز الى قاعدة متينة تسندها وتستجيب لها، خلال هذه المسيرة على المفكرين الاسلاميين تصحيح المفاهيم الاسلامية لدى الأمة وازالة الغبش التاريخي الذي لحق بها من المؤثرات الوافدة والرواسب العالقة والمصالح السياسية الفاسدة التي تحرص على ابقاء الأزمة والترويج لها

• وهذا يكون بتوظيف الطاقات الاسلامية في كل ميدان لمراجعة المفاهيم السائدة التي تعكس روح الاسلام الخلاقة من خلال الفهم السليم والاستنباط الدقيق للأحوال التي تعنيهم في الواقع والتاريخ، والرصد من خلال اللقطات المحدودة للنصوص وربطها بأحداث الحياة على عهد الرسول ﷺ وسياساته وخلفائه الراشدين، وبحياة الرسول عليه الصلاة والسلام واصحابه في صدر الاسلام حتى تعود للأمة مفاهيمها الحية الفاعلة الصحيحة التي أعطت للأمة جيل الاصحاب أكثر ما يكونون فاعلية وأكثر ما يكونون عطاء دون اشراف نفس أو طمع أو شره، مدركين ان الحياة والمادة وسيلتهم الى الوجود والتعبير الخير بها عن ارادتهم وذواتهم فكانوا بذلك حركة دائمة وفعلاً خيراً مستديماً، حياتهم فاعلية وعطاء وبذل وليست جمعا وحرصا وتكديسا لاهثا فاسدا رخيصا لا يتوقف ولا ينقطع.

وكان الاسلام بالنسبة لهم ليس لحظة ذكر أو بذلا وتضحية سرة ولكنه مسيرة دائمة على سبيل الحق والخير واتخاذ القرارات الفاعلة السليمة واسلوب حياة ومسيرة وجود حتى تلقى وجه ربها خيرا وسعادة أبدية.

ولذلك لا يحقر المرء منهم من المعروف شيئا ولو ان يلقى أخاه بوجه طلق، واماطة الأذى عن الطريق صدقة وفي بضع أحدهم صدقة والراحمون يرحمهم الله، والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه، والمسلم من سلم جاره بوائقه، والمسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه وكان الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه

بعضا، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ولا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى، **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى﴾**، والبر حسن الخلق، وما آمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم به. والنظافة من الايمان، وان الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه

وهكذا امكن لبضع آلاف من الناس آمنوا بهذه الحقائق والفضائل وعاشوها ان يجتاحوا جل العالم المتمدن في عصرهم وان يتحول الناس الى عقائدهم وسمتهم بل وحتى لغتهم وهو مالم يحقق مثله فاتح في مثل هذه الحقبة سن التاريخ.

ولأضرب مثلا كيف ينحرف الفهم وكيف يجب ان يستقيم فالعمل الصالح عند أولئك الأصحاب لا يقف عند هذا الحد السلبي وهو حد الذكر او ما يطلق عليه العبادات بل هو الى جانب ذلك عمل إيجابي موضوعي فاعل خير يبذل تعبيرا عن الذات والارادة.

كما ان مفهوم العبودية لم يكن يرادف لديهم الاستعباد بل التعبد وهو أخذ النفس بالحق والصواب وتعبيدها وتذليلها، فالله هو الحق وللمؤمنين القوة والقدرة والفاعلية والعزة.

مثل آخر كيف ان الدارسين من غير المتخصصين في علم الحكم أو السياسة لم يمكنهم ان يعوا درسا مثل درس تصرف ابي بكر رضي الله عنه في حرب الردة.

لقد رأوا في ذلك حين لم يعوا طبيعة مجتمع الأصحاب المحدود ومعرفتهم الكاملة ببعضهم البعض وانشغالاتهم الهائلة بأعمال الفتح والادارة وانعدام الهياكل الرسمية والتنظيمات الاجتماعية المسبقة مما يجعل فهم تصرفاتهم وأعمالهم ودلالاتهم من خلال الاهتمام بالهياكل والتصرفات الرسمية ناقصا مبتورا ولا يمكن فهمها الا بفهم البناء غير الرسمي في تلك العلاقات والتصرفات،

فأبو بكر كان من خيرة الأصحاب والقائد الذي اختاروه لجماعتهم وكان معروفا عندهم بالرحمة ولين القلب وكثرة البكاء رقة وشفقة ولكنه كان

ذا بصر ثاقب ورؤية واضحة وجنان ثابت ولذلك سمي الصديق.

فلما واجه ثورة العرب على السلطة المركزية وأعلنوا العصيان وامتنعوا عن دفع الزكاة، كان الأمر بالنسبة لأبي بكر واضحا وهو ان الأمر أمر عقيدة فقد خاطبهم القرآن الكريم ﴿**ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ فالقضية في جوهرها قضية النظام الاجتماعي واظهار الولاء له في الحياة الدنيا والعلاقات الاجتماعية العامة وليس قضية ايمان وتعلق ويقين.

فلما ارتفعت اصوات بعض الأصحاب لهول فكرة القتال بين من يدعون الاسلام واختلط الأمر عليهم، كان من الطبيعي ان لا ينكص القائد الخليفة على عقبيه عند اول صيحة بل يصمد ويوضح رؤيته في هذا الأمر المصيري، فإما ان يرى ما يرون أو يرون ما يرى أولا يتحمل مسئولية العمل دون قناعته في قرارات مصيرية.

واخذ النظر والنقاش مجراه بين الأطراف وهنا يتضح لهم الأمر ويرون ما يرى ابو بكر ويعلن عمر الثقة المطروحة في ابي بكر ويقول «فوالله ما ان رأيت إصرار ابي بكر على الأمر حتى شرح الله صدري».

وهكذا مارس ابو بكر دروه القيادي واتخذ القرار المصيري الصائب في قتال اهل الردة بقناعة، وتقبل الصحابة رضوان الله عليهم دون قسر أو رهبة لم يكن لأبي بكر وسائلها على أي حال.

وهكذا لا يرى في مثل حادثة حرب الردة مثالا على عدم الزام الشورى الا من ليس له دراية بعلم الحكم ولا ممارسة اجراءات اتخاذ قراراته

وهذا شبيه بمن يرى الديموقراطية والشورى أمرا واحدا دون ان يدرك الفوارق الأساسية النابعة من الفلسفات والمرتكزات التي ترتكز اليها هذه المفاهيم والمصطلحات.

فالديمقراطية هي التعبير عن مفهوم الفلسفة المادية الفردية في اتخاذ القرار السياسي ولذلك فهي تستند الى حق الفرد المطلق في تحقيق ذاته وان كل شيء هو وسيلة لتحقيق تلك الذات ومقياس الحق والخير والصواب.

وبذلك فان الأغلبية حين تتحقق يكون لها الحق المطلق لأن لها القوة

للحصول على ارادتها، ولا يكون للأقلية حق والدساتير الحديثة وحقوق الأنسان الأساسية هي ترقيع لذلك النقص الخطير في التعبير الديمقراطي السياسي وواقع الممارسة في تلك المجتمعات بينما الشورى تعبير عن مجتمع الاخاء الذي يسعى في حدود الحقوق المترتبة مسبقا وشرعا لكل فرد وفقا لأحكام الاسلام بغض النظر عن موقعه من اتخاذ القرارات أقلية أو أغلبية وذلك باتخاذ القرارات بروح الاخاء وتوخي المصلحة العامة والسعي نحو الحق لذاته بما تمليه روح الاسلام، ولذلك فالتعبير يحمل معنى التناصح والتشاور دون ان يمس بعد ذلك الزامية المشورة الصحيحة من قبل المؤهلين لها. **﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين. فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ﴾**[1]

هذا اللون من الجهد المكثف المتخصص القادر على تصحيح المفاهيم والتأثير في التربية والسلوك والمؤسسات الاجتماعية سيكون خير عون على توضيح الرؤية والمفاهيم في سبيل الحسم لمصلحة القرار السياسي المطلوب لاصلاح **التعليم و الاعلام** وحل **الأزمة الفكرية** وتوحيد القيادات الفكرية والاجتماعية وارتكازها الى القاعدة السياسية المطلوبة في وحدة ثقافية اسلامية شاملة، وتكون الأمة عند ذلك قادرة على السير في الطريق مهما سبب ذلك من معاناة وجهد مقابل الواقع المر من العجز والضعف والألم التي ظلت تتجرعه على مر قرون من الانحراف والسحق والهزيمة والهوان.

الاسلام ومستقبل الانسانية:

ولكن ما الذي يعني الانسانية من هذا الاسلام ومشاكل أمته التي حاولنا القاء الضوء عليها فيما مضى في الصفحات.

الذي يعني الانسانية من هذا الدين هو ما يعني المسلمين بل ان الانسانية والشعوب القادرة علميا وماديا هي فيما ارى اشد حاجة اليه لأنه يحوي المفاهيم التي تجيب على جوانب الضعف في كيانها القائم، والمتفاقمة على مدى المستقبل.

---

١ ـ سورة المائدة. الآية: ١٣٥

ويتلخص ذلك في امرين:

الأمر الأول:

ان الاسلام يقيم مجتمعا يبني على اساس الوحدة ويقوم على مفهوم الاخاء ويركز النظر على الاستجابة لحاجة الفرد الأساسية والاهتمامات المشتركة بينه وبين الآخرين على كل المستويات انطلاقا من الأسرة الى الجار الى القوم الى الانسانية.

وهذه الشعوب وهي تفجر الطاقات المادية التدميرية الهائلة لا يسعها إلا ان تعيش في ظل فلسفات المواجهة و الصراع بين الأفراد أو القوميات أو الطبقات أو ـ ما اسميه ـ فلسفة **الحراب المتقابلة**، فلا شك انه مع توفر آلات الدمار الكونية وفي ظل نفسية الصراع والمواجهة والتركيز على وجوه الاختلاف والتعارض، ليس هناك ما يدعو الى الظن الا ان يفلت الزمام في لحظة جنون انساني انتحاري شهدت الازمان ما يماثلها مع فارق الآثار المدمرة في عالم الغد.

ومن هنا فان عالم الاسلام أو عالم **الحلقات المتداخلة و الأمن الجماعي** هو فلسفة الغد التي لا سبيل سواها لتحقيق النمو والأمن النفسي والروحي والعاطفي الذي يحقق الأمن والسلام الصحيح لعالم الغد.

يقول الله سبحانه **﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾**[1] **﴿يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾**[2] **﴿ومن آياته خلق السمٰوات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم﴾**[3] **﴿وما كان الناس الا أمة واحدة، فاختلفوا .﴾**[4] **﴿وبالوالدين احسانا وبذي**

---

١ سورة النساء. الآية: ١١

٢ سورة الحجرات. الآية: ١٣

٣ سورة الروم. الآية: ٢٢

٤ سورة يونس. الآية: ١٩

القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ﴾[1]

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. .﴾[2] ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم. .﴾ ﴿وقولوا للناس حسنا ﴾[3] ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم، ان الله يحب المقسطين﴾[4] ﴿وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[5] ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا﴾[6] ﴿فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين﴾ ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على الاَّ تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله﴾[7] ﴿واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل﴾[8] ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾[9] ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين، انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون، ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكنَّ خيراً منهنَّ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾[10]

الأمر الثاني:

يتعلق بمعنى المعرفة وطرق البحث العلمي فالحضارات والفكر المادي القائم جوهرياً على الأسلوب العقلي التجريبي الاستقرائي ينطلق من

---

١ ـ سورة النساء. الآية: ٣٦
٢ ـ سورة المائدة. الآية: ٣٣.
٣ ـ سورة البقرة. الآية: ٨٣.
٤ سورة الممتحنة. الآية: ٨.
٥ سورة النحل. الآية: ١٢٦
٦ سورة البقرة. الآية: ١٩٠
٧ سورة المائدة. الآية: ٨.
٨ ـ سورة النساء. الآية: ٥٨.
٩ ـ سورة المائدة. الآية: ٢
١٠ ـ سورة الحجرات. الآيات: ٨ ـ ١٠

العالم المحسوس والتجارب والمعلومات المتوفرة للتعرف على القوانين التي تحكم الحياة والكون. وهو فكر منبت عن اي معرفة مسبقة أو وحي منزل لأنه لأسباب خاصة بالأديان الكبرى الأخرى عدا الاسلام خاصة المسيحية بامكان اتباعها علميا والثقة بأي معلومة بعينها مما جاءت في كتبهم المقدسة ولأن كثيرا مما بها لا يقبله العقل والعلم.

واذا أدركنا التعقيد الهائل للطبيعة الاجتماعية للانسان وتعدد العوامل التي تؤثر على السلوك الانساني في وقت واحد واستحالة تثبيت بعضها أو اخضاع البشر للتجربة المعملية، أدركنا التخبط الهائل للعلوم الاجتماعية وتوالي النظريات المتناقصة في ميدان العلوم السلوكية والاجتماعية والتربوية

ولما كانت آثار الأخطاء في هذه المجالات لا تتضح في أمد قصير ولا يسهل تلافي آثارها المدمرة بعد ان تصل الى مداها في تكوين الجماعات الانسانية والتأثير على بنيتها

اذا ادركنا ذلك ادركنا الميزة الموروثة في مجال المعرفة الاسلامية، فالمعرفة الاسلامية تنطبق على المعرفة المادية لكنها لا تقف عند حدها بل تهذبها وتمنع اضرارها

ففي الوقت الذي يجب فيه على المسلم النظر والفهم في الخلق والمخلوقات والتعامل معها والافادة منها ورعايتها الا ان المسلم لديه كمية من المعلومات والمسلّمات المسبقة بلغت اليه وحيا من عند الله تختص بالقضايا الاجتماعية السلوكية الاساسية، فاذا شط الفهم والنظر بالمسلم في قوانين الكون والوجود والعلاقات فإن له من الوحي عاصما يمنعه من الندم بعد فوات الأوان فليس صوابا ولا حقا ما عارض حلالا أو حراما بفهم صحيح لنص صريح وهكذا فان المعرفة الاسلامية توظف وفي وقت واحد مصادر المعرفة العقلية التجريبية الاستقرائية الى جانب مصادر المعرفة الكونية الكلية الاستنباطية فللمسلم ان يتعامل ما شاء له التعامل وان يتاجر

وان ينتج ما شاء الله المتاجرة والانتاج الا ان يكون عملا يسبب اذى للخلق أو ربا أو ظلما لهم لابذل جهد وتبادل نفع.

وللمسلم ان يتخذ له ما شاء من أساليب العيش وتقاليد الحياة الأسرية الكريمة وأن يكيفها وفق ظروفه الخاصة، الا ان يبيح لنفسه نيل الجنس على غير الغاية منه ودون عقد مشروع يرتب للمرأة وللطفل كرامتهما وحقوقها النفسية والمادية المترتبة على نيله لوطره وحاجته، فاذا فعل ذلك فقد ظلم وأفحش واعتدى والله لا يحب المعتدين.

وهكذا حال الوحي وتعاليم الاسلام ليست قيودا ولا قوالب وانما هي مشاعل وعلامات على دروب الحياة لدرء الضلال والغواية والفحش وتحقيق الوجود والعلاقات الاجتماعية الأمثل.

﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1]

لا يغير من هذه الحقيقة عن المعرفة الاسلامية ووسائلها جهل اتباع الاسلام لموضع العقل من النقل ولا استهانتهم بشأنه، فذلك أمر كان وراء طاقتهم بسبب العزلة والانفصام الذي فرضته ظروف الأحداث على قياداتهم الفكرية وقياداتهم الاجتماعية ولعدة قرون.

هذان الأمران وهما **مجتمع الوحدة في مقابل مجتمع الصراع** واستكمال **ضوابط** العلاقة في مصادر المعرفة الانسانية سيكون لهما في تصوري في عالم الغد أهمية خاصة حين لا يستطيع المجتمع البشري دفع ثمن الأخطاء كما تعود في الماضي حيث كانت المعارك التاريخية الفاصلة يموت فيها عشرات أو مئات الرجال. وكانت الأمم في مأمن مما يجري على ساحات سواها على وقت تصبح الأرض قاطبة كالحجرة الواحدة كل صرخة منها تخدش اسماع كل من في الغرفة وكل مأساة منها تصدم ابصار كل من في الغرفة وكل أذى يقع بها ينال كل من حضر الغرفة.

---

١ سورة النحل. الآية: ٩٠

وحين تتيقن الانسانية ما بلغته من وسائل التدمير والخراب ومن تهديد وجود الأرض في عالم الفضاء.

حينئذ فقط تدرك الانسانية حاجتها الى الضوابط الدقيقة الحاسمة ـ المعلومة في كتاب الله وصحيح السنة والتي فرضت احترامها والثقة على كل منصف متأمل ـ لتقيها من الانزلاق الى هاوية الفناء.

وحينئذ فقط لا يكون المخرج بالتطلع الى المواجهة والغلبة ولكن الى الوحدة والتقارب والى البحث عن عوامل الوجود المشترك والمصلحة المشتركة.

ان على المسلمين فهم رسالتهم اداء للحق وانفاذا للغاية منها في هذا الوجود على مقتضى حكمة الخالق.

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس.﴾[1]

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[2]

الخاتمـــة:

هذه تأملات فيما آل اليه أمر الأمة ونظرة حاولت ان استبطن بها التاريخ لأرى كيف بدا التغير المأساوي في حياة المسلمين واسبابه والانطلاق من ذلك الى أسس التغيير والعلاج في اطار موضع الأمة الاسلامية من الانسانية في أزمتها الكبرى وقلقها الأبلغ.

وانني أرجو بهذه التأملات ان اشحذ همم المفكرين بالنظر على امتداد آفاق الوجود الاسلامي والانساني وعلى ابعد الأعماق علّ ذلك يوفر الجهد المطلوب على مستوى المعاناة التي تلقاها الأمة الاسلامية والقلق الذي يساور الانسانية.

ان على قيادات هذه الأمة ومفكريها في اعتقادي ان يعلموا ان مناجزيهم يدركون ان قيم الاسلام وعقائد الاسلام وحضارة الاسلام هي تحدي المستقبل ووارث المستقبل ولذلك فهم يحرصون على ان يصرفوا

---

١ ـ سورة البقرة. الآية: ١٤٣

٢ ـ سورة الزلزلة. الآية: ٦

المسلمين عن فهم هذه الحقيقة وجرهم الي متاهات فيها المزيد من الجهد والمزيد من العمل والمزيد من المعارك ولكن دون تغيير في فهم لأنفسهم واعادة لبناء علاقاتهم ونسيجهم الاجتماعي وفقا لقيم الاسلام ومنطلقاته الصحيحة

ان في تصحيح المفاهيم والمنطلقات واعادة بناء العلاقات الاجتماعية على أسس الاخاء والبذل والعطاء والفاعلية الاسلامية تغييراً كاملاً لكل معادلات الوجود والقدرة والفاعلية للأمة الاسلامية، وهو توحيد اتجاه وتفجير طاقة وهو ما يخشاه المناجز، أما الجهد والكد من واقع الأمة السقيم ومفاهيمها الفجة وأساليبها العاجزة وعلاقاتها الفاسدة ونسيجها الاجتماعي الواهن المنتن هو مزيد من الضياع والوهن والعجز وهو ما يحرص على ابقائه المناجز، ان عامل الحسم في الأمر ليس في كم الجهد والعمل بقدرما هو في نوع العمل ووجهة العمل.

هل هو في تنمية قدرة الأمة على الفعل أو في مزيد من انهاك قدرتها على الفاعلية والانجاز

ان حقيقة ميدان المعركة هو فكري أيديولوجي وليس اقتصاديا، وهو امر على أي حال لا يعني التعارض ولكن يوضح علاقة وأولوية العمل والبناء، فالبنية الاجتماعية الفكرية النفسية القادرة السليمة، ميدان انجازها وتعبيرها في شكله هو مادي اقتصادي عملى تكنولوجي لغايات سليمة، ولا بد ان يكون كذلك بشكل أو بآخر والعكس ليس صحيحا فليس للمريض العاجز ان يفعل مهما تبجح أو تمنى.

ومما يدعو الى التأمل هنا هو ان الانجاز الاسلامي هو أيضاً انجاز انساني، وأن في تحقيق الذات الاسلامية انقاذا لمستقبل الذات الانسانية

ان هذه حقيقة أرجو ان يعيها عقلاؤنا وعقلاء المناجزين لنا وأن ينصرفوا الى ما فيه الخير لكافة الفرقاء وعلى امتداد الأبد.